تحولات الخطاب في النص القرآني "دراسة في الإفراد والتثنية والجمع"

مراد رفيق البياري

قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الملك فيصل

الأحساء، المملكة العربية السعودية

الملخص:

عمدت هذه الدراسة إلى البحث في تحولات الخطاب في النص القرآني في صوره بين الإفراد، والتثنية، والجمع، ومعالجتها معالجة نحوية لغوية في محاولة لتوضيح أسباب هذا التحول ودلالاته. وقد اجتهدت أن تقف على أسباب ودلالات رئيسة لهذه التحولات تمثلت في: مراعاة معنى "مَن"، وخصوصية النبي صلى الله عليه وسلم، وشمول التابع مع المتبوع، ومراعاة الأصل اللغوي، ومراعاة الأهم، والرد على كل شاك. فضلاً عن الدلالات الفرعية التي نتجت عن هذه التحولات.

الكلمات المفتاحية: تَحوّل، جمع، خطاب، دلالة، مثنى، مفرد.

المقدمة:

إنَّ القرآن الكريم معينٌ لا ينضب، فلا يزال محط أنظار الكثير من الباحثين في مختلف العلوم. وقد كان للغة العربية نصيب واضح في هذه الدراسات، فتناوله بالدراسة والتحليل النحاة، واللغويون، والبلاغيون، والمفسرون، كلٌّ يدرسه من الجانب الذي يبتغيه.

ومن خلال النظر في النص القرآني الكريم نجد آياته قد اتسمت بطابع التحول في الخطاب بين الإفراد، والتثنية، والجمع، ومن المعلوم أنَّ النص القرآني لا يشوبه خلل، ولا يخالفه انتظام، فهو الكتاب المُعجز المحكم الذي لا يأتي كلامه إلا لدلالة ما، قد لا تتكشف في النص الحاضر للقارئ، غير أنها تبدو جلية واضحة في النص الغائب، الذي لا ينكشف للقارئ إلا بالدارسة والتحليل؛ وقد وعى بعض المحدثين إلى ضرورة ذلك "ففي ظروف معينة يمكن للناس أن يتخطوا النص السطحي أثناء فهم النص، فعندما تتعدد الافتراضات حول تركيب عالم النص أو

تتلاءم يصبح التحليل النحوي أكثر شمولا"[1]، فالنص كما يشير النقاد "لا يمثل سوى افتتاحية للمعنى، فهو لا يمكن انفتاحه كموضوع إلا في المرحلة النهائية للقراءة، عندما نجد أنفسنا غارقين فيه، والقارئ باعتباره نقطة من المنظور يتحرك خلال الموضوعات، فهو يمثل نقطة رؤية متحركة داخل ما يجد عليه تأوله، وهذا ما يحدد فهم الموضوعات الحالية في النصوص"[2]؛ وعليه فقد وعت الدراسة إلى البحث في هذا التحول في محاولة منها لتحليله وتوضيح أسبابه ودلالاته من خلال دراسة التحولات النحوية، واللغوية في جانب الإفراد، والتثنية، والجمع، وتعدي النص الحاضر وصولاً إلى سر الجمال في النص القرآني. وقد كان لهذه الدراسة مسوغات وأسباب أهمها:

- رغبة الباحث في تناول قضية نحوية، ولغوية تخدم النص القرآني، وربطها بالدلالة المرجوة، فالنحو لصيق بالدلالة يخدمها وتخدمه ذلك أنَّ "هناك تفاعلاً بين العناصر النحوية، والعناصر الدلالية، فكما يمد العنصر النحوي العنصر الدلالي بالمعنى الأساسي في الجملة الذي يساعد على تمييزه وتحديده، يمد العنصر الدلالي العنصر النحوي كذلك ببعض الجوانب التي تساعد على تحديده وتمييزه"[3].
- الإجابة عن أسئلة التحولات، والنظر فيها؛ لمعالجتها معالجة نحوية لغوية؛ للوصول إلى أسبابها، وأبرز الدلالات التي نتجت عن هذه التحولات.
- قلة الأبحاث والدراسات التي تناولت مثل هذه التحولات:

ولعله من المفيد هنا أن نذكر أبرز الدراسات التي أشارت إلى مثل هذا النوع من الدراسة، ونوضح الفرق بينها وبين دراستنا.

أولاً: "إعلاوي، والأحمد، (2007)، وهو بحث هدف صاحباه منه إلى تحديد مفهوم

---

(1) ينظر: روبرت دى بوجراند، (1998م)، النص والخطاب والإجراء،ترجمة تمام حسان، ط1،القاهرة، عالم الكتب، ص217 - 218.

(2) فضل، صلاح (1997م)، مناهج النقد المعاصر، دار الآفاق العربية، القاهرة، ص 150.

(3) عبد اللطيف، محمد حماسة، (2000م)، النحو والدلالة - مدخل لدراسة المعنى النحوي – الدلالي - ط1، القاهرة، دار الشروق، ص113

التفات العدد في ضوء المفهوم العام للالتفات الذي أشار إليه العلماء، ثم عمدا إلى إلقاء نظرة سريعة على نماذج مختلفة مما يرونه يندرج تحت التفات العدد في محاولة لإيراد دلالات هذا الالتفات. غير أنه وبقراءة البحث تبين لنا أن الباحثين وإن بذلا جهدا محمودا إلا أن دراستهما ركزت على تضييق دائرة الالتفات ،ورد الأمثلة التي أوردها حسن طبل في دراسته، وأنها ليس من باب التفات العدد في شيء. كذلك فإن الأمثلة التي أوردها الباحثان لم تتم دراستها بصورة مفصلة، فضلاً عن قلتها، حيث حصرا دلالة التفات العدد في الحديث عن الذات الإلهية وتعظيمه، وتعميم الخاص كل ذلك من خلال التنقل، والتعبير عن الوحدة بالرغم من التعدد.

ثانياً: طبل، (1998). وهي دراسة عن الالتفات في البلاغة العربية بذل فيها صاحبها جهداً واضحاً، وقد جاءت دراسته عامة عن الجذور التاريخية لظاهرة الالتفات، ودراسته في ضوء علم الأسلوب، والوقوف على مواطن الالتفات وأنواعه في الصيغ، والعدد، والضمائر، والبناء النحوي، والمعجم. وقد قدم الباحث شيئاً عن التفات العدد في القرآن الكريم ص88 - 102 رغبة منه في إلقاء الضوء على مثل هذا النوع من الالتفات. ومن الجدير بالذكر أنَّ الباحث في نهاية دراسته قدم جدولا بيَّن فيه أنواع الالتفات ذاكرا الآية ونوع الالتفات فيها فقط، من غير تحليل أو دراسة، ونظنه قد توسع كثيراً في هذا الإحصاء كما أشار إلى ذلك أيضا نزيه محمد إعلاوي وأيمن محمد الأحمد "ينظر التفات العدد في نماذج من القرآن الكريم ،ص718"، وعلى الرغم من تطابق بعض أمثلتي مع بعض الشواهد التي ذكرها الباحث، وقد أشرت إليها في البحث، إلا أنه مر على ذكرها مرورا ولم يتناولها بالدراسة والتحليل، على خلاف ما فعلنا في هذه الدراسة، فالآيات التي في بحثنا هي خلاصة الأمثلة التي رأيت أن تكون عينة للدراسة. التي كانت نتيجة قراءة دقيقة للقرآن الكريم.

ثالثاً: زاهدة، (2008)،

هدفت الباحثة منه إلى بيان صور العدول في السياق القرآني، وبيان الدلالات المستقاة من بعضها، فقد قسمت الباحثة دراستها وفقاً لصور أربعة من العدول: العدول عن الجمع

إلى المفرد، والعدول عن المثنى إلى المفرد، والعدول عن المثنى إلى الجمع، والعدول عن المفرد إلى الجمع، ثم قدمت تحليلا لثلاثة نماذج أو أربعة لكل صورة من صور العدول التي تناولتها، واكتفت بعدها بذكر مجموعة من الآيات التي تخدم صورة العدول ضمن جدول دون أن تحلل أو تبدي رأيا فيها؛ وعلى الرغم من جهد الباحثة في دراستها، إلا أنه يمكن لنا أن نجمل نقاط الاختلاف بين دراستها وبين دراستنا بالآتي:

- جاءت دراستنا مُقَسمة وفقاً لدلالات التحولات التي تمثلت في: مراعاة معنى "مَن"، وخصوصية النبي صلى الله عليه وسلم، وشمول التابع مع المتبوع، ومراعاة الأصل اللغوي، ومراعاة الأهم، والرد على كل شاك. فضلاً عن الدلالات الفرعية التي نتجت عن هذه التحولات. ولم يكن التقسيم لصورة التحول كما قدمت الباحثة في دراستها.
- حاولت دراستنا أن تشير إلى جميع دلالات التحول في الآيات التي كانت عينة للدراسة، ولم نكتفِ بِذْكر الآية دون الوقوف على سبب التحول فيها ودلالته.
- النماذج التي اختارتها الباحثة عينة للدراسة تختلف عن نماذج دراستنا، ولقد أشرنا إلى المتشابه منها، ومدى الفائدة منها والاختلاف في وجهات النظر والتحليل في صفحات البحث اللاحقة، وهي لا تتجاوز نموذجين.
- أخيرًا فيما يخص هذه الدراسة فإنَّ المدقق في الدراستين يجد فرقاً واضحاً على مستوى الدراسة والتحليل، وعدد النماذج التي كانت عينة للدراسة، والدلالات المستنبطة من هذه التحولات، فضلا عن طبيعة مصادرنا وعددها مقارنة بمصادر الدراسة السابقة.

ومن المفيد هنا أن نشير أيضاً إلى بعض الدراسات التي درست العدول في القرآن الكريم، وأهمها:

أولاً: الفاضلي، (2011م)، وهذه الدراسة لم تخص التحول العددي في القرآن الكريم، وإنما جاءت الدراسة شاملة لأسلوب العدول في القرآن الكريم وفق فصول ومباحث عدة توزعت على الشكل الآتي: جاء الفصل الأول عن العدول الصوتي، أما الفصل الثاني فكان عن العدول في الصيغ والأساليب وفي هذا الجانب تحدثت الباحثة عن

العدول في البنى التركيبة، والصيغ الفعلية، والصيغ الصرفية، والمشتقات، في حين تناول في الفصل الثالث العدول وبناء الأسلوب متحدثة عن أسلوب التفصيل والإجمال، وعن بناء الأسلوب وتبادل الألفاظ وفيه حاولت الباحثة أن تبين تبادل المورفيمات والأدوات والحروف وأثرها في تحقيق القيم البلاغية. أما الفصل الرابع جعلته الباحثة لجماليات هذا العدول في القرآن الكريم.

ثانياً: الشيخ جمعة، (2010م)، وقد أشارت الباحثة في المبحث الثاني من الفصل الثاني من الباب الأول عن أثر السياق في تحديد الفصائل النحوية وأشارت منه إلى فصيلة العدد، وخلصت إلى أنَّ مدلول العدد في الواقع يختلف عنه في النحو؛ حيث يُلاحظ وقوع بعض المفارقات عند استخدام العدد في الاستعمال النَّحوي واللغوي، على سبيل المثال قد يستعمل المفرد، ويراد به مقابل المثنى والجمع، وتارة يستخدم ويراد به مقابل الجملة وشبه الجملة.

وكما هو ملاحظ فقد انصب جهد الباحثة في بيان دلالاتها على دور السياق في تحديد المعنى، كما هو عند فيرث والتي تُعنى بدراسة المعنى عن طريق توظيف كلِّ ما يُحيط بالموقف الكلامي من قرائن لفظيَّة وحالية ومقامية. وليس هذا مطلب دراستنا فحسب فدور السياق في تحديد دلالة التحول جانب من الدراسة كما سيتضح خلال صفحات البحث اللاحقة.

- من جانب آخر لم نسمِ دراستنا هذه بالالتفات لأنَّ الالتفات موضوع واسع البحث فيه آراء متضاربة، فقد اختلف الدارسون والباحثون في تحديد مفهومه وقيوده ومجالاته، والحال كذلك لموضوع العدد والتحول في صيغه فالاتفاق على أنه يدخل في باب الالتفات لم يجمع عليه، لذلك رأينا أن نسمي بحثنا بالتحول لأنه ليس هناك شك في أن الانتقال من صيغة إلى أخرى هو تحول[1].

وللوصول إلى الهدف المرجو اتبعت الدراسة منهجاً تمثل فيما يأتي:

1. جمع الآيات التي قامت عليها الدراسة، وهذا الجمع لم يكن هدفه الحصر، وإنما كان نماذج توزعت على آيات القرآن كاملة.

(1) لمعرفة آراء العلماء والباحثين في مفهوم الالتفات ومجالاته وقيوده ينظر الالتفات في البلاغة العربية، ص10-29.

2. الوقوف عند أشكال التحول التي نحن بصدد دراستها، التي تمثلت في التحول بين الإفراد، والتثنية، والجمع، لتصنيفها وتحديد صورها.
3. لم تعنَ الدراسة بتحول الخطاب الظاهر في النص، أي بانتقال الكلام من صورة إلى أخرى تحول فيها الكلام إلى مخاطب آخر، وإنما تركزت الدراسة على التحول الذي يكون فيه الانتقال من صيغة عددية إلى أخرى، التي يكون فيها "المنتقل إليه هو المنتقل عنه فيما يقتضيه الظاهر"(1).
4. جاء تقسيم البحث وفقاً لدلالات التحول وأسبابه الرئيسة، لا لصور التحول؛ رغبة منا بوضع الدلالة المقصودة في مبحث واحد، على الرغم من اختلاف صورة التحول. وربما في هذا إحكام للدراسة؛ لأنها تجمع تحت التحولات المختلفة دلالة واحدة مشتركة.
5. فضلاً عن الدلالة الرئيسة للتحول حاولنا أيضا أن نقدم بعض الدلالات الفرعية التي كان لأجلها التحول.
6. تشكلت الدراسة في مقدمة، ومباحث ستة، وخاتمة أودعت فيها أهم ما توصل إليه البحث من نتائج.

وأسأل الله أن يفي هذا البحث غايته

التحول في الخطاب مراعاة لمعنى "مَن":

غلب على هذا التحول صور الانتقال من المفرد إلى الجمع. فقد ذكر النحاة أنَّ" كلمة "مَن" سواء أكانت موصولة أم غير موصولة هي إحدى الكلمات التي لفظها مفرد مذكر، ولكن معناها قد يخالف لفظها؛ ولهذا يصح أن يعود الضمير عليها مفرداً مذكراً مراعاة للفظها وهو الأكثر، ويجوز فيه مراعاة المعنى المراد وهو كثير"(2) فهي لفظ مذكر فإن أريد بها غير ذلك روعي المعنى فنقول "جاء من قام

(1) ينظر: التفات العدد في نماذج من القرآن الكريم، ص718.

(2) حسن، عباس، النحو الوافي، ط3، دار المعارف، مصر، ج 349.

وقعدوا"[1].

يقول الله تعالى: "﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾"[2] فقد روعي اللفظ أولاً فقيل: "مَن يقول"، والمعنى ثانياً في "آمنا"، وهذا الحمل جار فيها من كونها موصولة وشرطية واستفهامية[3]، فقد أفرد الضمير في "يقول" مذكراً على لفظ "مَن. و"آمنا" جملة هي المقولة فهي موضع المفعول وأتى بلفظ الجمع رعياً للمعنى، إذ لو راعى لفظ "مَن" لقال: "آمنت"[4]، ومراعاة المعنى لم يكن في لفظ "آمنا" فقط، وإنما جاء في قوله "وما هم بمؤمنين"، وإلى مثل ذلك أشار بعض المحدثين، يقول فاضل السامرائي: "مَن تصلح للمفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث"، ويجوز مراعاة لفظها أعني الإفراد والتذكير، كما يجوز مراعاة المعنى قال تعالى: "﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾" فقد أعاد الضمير على لفظ "مَن" وهو الإفراد فقال "من يقول"، ثم أعاده فيما بعد على معناه وهو الجمع فقال: "وما هم بمؤمنين"[5].

ولعل في ذلك سببا آخر هو أنَّ فلسفة القول وإن نتجت عن شخص بضمير

---

(1) الحلبي، السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق أحمد الخراط، دار القلم، دمشق.ج 1،ص121، وينظر إلى من أشاروا إلى ذلك: العكبري، محب الدين أبو البقاء، التبيان في إعراب القرآن، بيت الأفكار الدولية، عمان، الأردن، ص17، والأندلسي، أبو حيان، البحر المحيط، ط1، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2001م، ج1،183، والمبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ن القاهرة، 1994م، ج2، 294، سيبويه، أبو بشر عمر، الكتاب، ط3، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988م، ج1،ص65، وابن السراج، أبو بكر محمد بن سهل (316هـ)، الأصول في النحو، ط3، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996م، ج2، 72، السامرائي، فاضل، معاني النحو، العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة، ج1، ص123. وينظر الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى، رسالة منازل الحروف، تحقيق إبراهيم السامرائي، دار الفكر، عمان، ص41" حيث عد من معاني مَن الجمع على التأويل".

(2) البقرة آية 8.

(3) ينظر:الدر المصون، ج1، ص230.

(4) ينظر:البحر المحيط، ج 1، ص183.

(5) معاني النحو، ج1 ص123.

الغائب "يقول" أي هو، إلا أنَّه عند الإخبار عن موضوع الإيمان جاء خطابه بالإخبار بضمير المتكلمين؛ رغبة في زيادة الإعلان عن موضوع الإيمان لهؤلاء المدعين؛ محاولة في إقناع الآخرين أنَّهم من أصحاب الإيمان فكان اللفظ "آمنا"، ولما كان الإخبار من الله عز وجل عن كذبهم وادعائهم الإيمان كان الخطاب بالجمع موازيا لادعائهم "آمنا". فالتحول إلى الجمع جاء مناسبا لفلسفة الادعاء من هؤلاء.

ومن صور هذا التحول قوله تعالى "﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾"[(1)] "وإنما قال جل ثناه" ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون "وقد قال قبل "فله أجره عند ربه"؛ لأنَّ "مَن" التي في قوله ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ في لفظ واحد، ومعنى جميع، فالتوحيد في "فله أجره" للفظ، والجميع في قوله (ولا خوف عليهم) للمعنى"[(2)].

وإلى مثل ذلك أشار سيبويه بقوله: فقد أجرى الأول على لفظ الواحد والآخر على المعنى[(3)] وذلك دفعاً للتكرار[(4)].

ولعل في ذلك إشارة إلى فردية الأجر، ذلك أنَّ الأجر متفاوت، ويخشى أن تضيع

(1) البقرة آية 112. هذه الآية ذكرها حسن طبل في الجدول الذي أودعه في نهاية دراسته وعدها من التفات العدد، ص179.

(2) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، ط1، تحقيق أحمد محمد شاكر، 2000م، ج2، ص513.

(3) الكتاب، ج1، ص65. وممن ذهبوا إلى أن اللفظ واحد والمعنى على الجميع: أبو عبيدة، معمر بن المثنى، مجاز القرآن، تحقيق محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج1، ص15، وابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997م، ج1، ص673، والقرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، السعودية، 2002م، ج2، ص75، والزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج1، ص203.

(4) ينظر:التحرير والتنوير، ج1ص675

الحقوق لو أعطيت بصورة جماعية، لذلك جاء الخطاب عن الأجر بالمفرد، أمَّا الأمان، وعدم الحزن فهو أمر جماعي يستحقه كل من نال الأجر دون النظر إلى درجة إيمانه[(1)]

ومنه قوله تعالى" ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ "[(2)]. فقد حمل على اللفظ فأفرد في "آمن" و"وأصلح" وحمل على المعنى فجمع في "فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون"[(3)]. ومثل ذلك تماماً قوله تعالى "﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ "[(4)].

فيلاحظ أنَّ خطاب الأمان وعدم الخوف الحزن يأتي بصيغة الجمع، وفي ذلك إشارة واضحة إلى الاطمئنان لكل من يؤمن، أو يعمل صالحا أو يتقي. إذ أن صيغة الجمع تنفي احتمال عدم الشمول لكل من يؤمن، فلو بقي الخطاب بالمفرد "فلا خوف عليه"، لكانت ظلال المعنى أقل وقعا على نفس السامع هل هو ممن شملهم الخطاب أم لا.

وفي قوله تعالى" ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ "[(5)] راعى لفظ "مَن" مرة فأفرد في "يقتل"، وراعى معناها مرة أخرى فجمع في قوله ﴿أموات بل أحياء﴾[(6)]، فجاء بـ "أموات" جمعاً على معنى "من"، وأفرد "يقتل على لفظ "من"، ولو جاء ميتاً كان فصيحا"[(7)]. ولا شك أنَّ هذا الجمع إشارة إلى قيمة الذي يقتل في سبيل الله

(1) ينظر التفات العدد في القرآن الكريم ن ص722.

(2) الأنعام، آية 48.

(3) ينظر: التحرير والتنوير، ج7، ص239، والدر المصون، ج4، ص638، والحنبلي، أبو حفص عمر بن علي، اللباب في علوم الكتاب، ط1، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد عوض دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1998م، ج8، ص156.

(4) الأعراف آية 35.

(5) البقرة آية 154.

(6) الدر المصون، ج1 ص365.

(7) التبيان في إعراب القرآن، ص184.

عز وجل، لذلك جاء الحديث عنهم بالجمع؛ لبيان قدرهم في قوله (أموات، أحياء)، وفي هذا بيان واضح لقيمة الشهيد عند ربه.

وفي قوله تعالى"﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾"[1]، لنا أن نلحظ تحول الأسلوب من صيغة الإفراد في "ومن كفرفلا يحزنك" إلى صيغة الجمع في "إلينا مرجعهم"، ولم يقل مرجعه لأنَّ "مَن" في اللغة تقوم مقام الاسماء الموصولة كلها فإن أردت لفظها فأفرد، وإن أردت معناها فأجمع[2]، "فهي تصلح للواحد والجمع فلهذا قال "كفره"، ثم قال "مرجعهم" وما بعده على المعنى"[3].

ومما هو ملاحظ أنَّ هذه الآية تشير إلى قدرته عزوجل في حساب كل من كفر بأن مرجعه لله عزوجل، فالخطاب بصيغة الجمع يحمل دلالة القدرة، وكذلك يضفي على السياق القرآني دلالة الاطمئنان للمخاطب نبيه ﷺ بعدم الحزن للذي كفر بدعوتك، فنحن متكفلون بحسابهم، أضف إلى ذلك جاء الجمع في "مرجعهم" متناسباً مع قوله عزوجل عن نفسه بصيغة الجمع "إلينا".

وقد يأتي التحول في هذه الصيغة لدلالة إكمال الرحمة من الله تعالى، وبيان قدر المؤمنين مقابل قدر الكفار، ففي قوله تعالى "﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾"[4]. جاءت "مَن" بالإفراد في ذكر الكفر، غير أنَّها في موضع العمل الصالح الذي هو من توابع الإيمان تحولت إلى الجمع في قوله "﴿ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون﴾".

يذكر الفخر الرازي أنَّ سبب هذا التحول: "قال" فلأنفسهم "فجمعها إشارة إلى أنَّ

(1) لقمان آية 23.

(2) ينظر الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج19، 11712، مطابع أخبار اليوم http://shamela.ws/index.php/book/1083 22/10/1433 تاريخ الاسترجاع 1434/10/22هـ

(3) الزحيلي، وهبة مصطفى، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ط2، دار الفكر المعاصر، دمشق، ج21، ص163.

(4) الروم آية 44. هذه الآية ذكرها حسن طبل في الجدول الذي أودعه في نهاية دراسته وعدها من التفات العدد، ص183.

الرحمة أعم من الغضب فتشمله وأهله وذريته، أمَّا الغضب فمسبوق بالرحمة لازم لمن أساء فقد قال "فعليه كفره" ولم يبيِّن، وقال في المؤمن "فلأنفسهم يمهدون" تحقيقا لكمال الرحمة فإنه عند الخير بَيَّن وفَصّل، وعند غيره أشار إليه إشارة"(1)، فالذي كفر يحمل وباله وحده بخلاف من عمل صالحا فهم كمن يمهد فراشه في الدنيا ليستريح عليه في مضجعه من كل ما ينغص نومه(2). فإفراد الضمير في "كفره" رعيا للفظ "مَنْ"، وهذا التركيب من جوامع الكلم لدلالته على ما لا يحصى من المضار في الكفر على الكافر، وأنَّه لا يضر غيره مع تمام الإيجاز، وهو وعيد لأنّه في معنى من كفر فجزاؤه عقاب الله، فاكتفى عن التصريح بذلك اكتفاء بدلالة: "على" من قوله "فعليه كفره"، وبمقابلة حالهم بحال من عمل صالحا قد روعي في جمع الضمير في "يمهدون" معنى "مَنْ" دون لفظها مع ما تقضيه الفاصلة من ترجيح تلك المراعاة بين الكافر والمؤمن(3). فضلا عن ذلك فإن إفراد الضمير باعتبار لفظ " مَنْ" فيه إشارة إلى حقارتهم عند الله مع ما عُلم من كثرة عددهم، وجمعه في قوله " فلأنفسهم يمهدون" باعتبار معناها وفيه رعاية الفاصلة إشارة إلى كثرة قدرهم وعظمهم عند الله تعالى(4).

وقد يأتي التحول في لـ " مَنْ" من المفرد إلى الجمع بدون ضمير، وإنما بلفظ الفاعل الجماعة يقول تعالى: "﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ "(5).

بدأ الآية بالإفراد " افترى" ثم ختمها بالتهديد والوعيد بلفظ الجمع "إنه لا يفلح المجرمون"، فحمل "مَنْ" على لفظها مرة حيث أن المقصود بالخطاب هنا مسيلمة الكذاب، ثم حملها على المعنى فتحول الخطاب إلى جماعة المجرمين الذين يحاولون

(1) الرازي، محمد بن عمر بن الحسن، تفسير الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، ص 3585، وينظر اللباب في علوم الكتاب، ج1، ص420.

(2) ينظر: عبد القادر، ملا حويش آل غازي، بيان المعاني، مطبعة الترقي، دمشق، 1383هـ، ج4، ص453.

(3) ينظر: التحرير والتنوير، ج 21، ص116- 117.

(4) ينظر: الآلوسي، محمود ابو الفضل، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج21، ص50.

(5) يونس آية 17.

الافتراء على الله الكذب، فجملة "إنَّه لا يفلح المجرمون" تذييل وموقعه يقتضي شمول عمومه للمذكورين، فقد عنى بهم أتباع مسيلمة وأشياعه ونظراؤه[1]. "فحمل مرة على لفظ "مَن" فوحد لقلتهم، ومرة على المعنى فجمع؛ لأنهم وإن قلو جماعة"[2]. وكذلك لفظ المجرمين هو جمع لأنَّه شمل صنفين من المخاطبين من افترى ومن كذب بآيات الله عزوجل.

وكذلك فقد جمع لفظ "خالدين" التي تعود على "مَن" في قوله تعالى "﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾"[3] "مراعاة لمعنى "مَن"[4] دون إعادة الكلام بضمير الجمع وإنما بلفظ الجمع "خالدين". وفي صيغة الجمع هذه تهويل وتخويف لكل من تراوده نفسه بأن يعصي ربه.

وعليه فإنَّ هذه التحولات التى راعى فيها النص القرآني معنى "مَن" إذا نظرنا إليها من زاوية المتلقي، نجد النص قد أدى جمالية واضحة؛ لأنَّ "جمالية التلقي قائمة على إعادة بناء أفق التوقع للجمهور"[5] وهذا تبيَّن لنا من خلال دور القراءة التي سعت إلى البحث في القرآئن النحوية ودورها في الكشف عن النص الذي لا يبدو للقارئ إلا ببيان دور الوظيفة النحوية في الدلالة المتوقعة من النص.

---

(1) ينظر:التحرير والتنوير، ج11، ص124.

(2) الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ج1، ص191 - 192.

(3) الجن آية 23. هذه الآية ذكرها حسن طبل في الجدول الذي أودعه في نهاية دراسته وعدها من التفات العدد، ص188. وذكرتها زاهدة عبد الله ضمن النماذج التي لم تقدم لها تحليلاً ينظر: العدول عن السياق في القرآن الكريم ص127.

(4) السيوطي، جلال الدين محمد أحمد، تفسير الجلالين، ط1، دار الحديث، القاهرة، ص772.

(5) ينظر: فرانك شويرفيجن (1998م)، نظريات التلقي، ضمن بحوث في القراءة والتلقي، ط1، ترجمة محمد خير البقاعي ظن مركز الإنماء الحضاري، حلب، ص35، نقلاً عن البشير، محمد عبد العزيز، تلقي الرواية السعودية في الصحافة منذ عام 2000م - 2010م، صحيفة الرياض أنموذجاً (2012م)، رسالة ماجستير، جامعة الملك فيصل، السعودية، ص25.

التحول في الخطاب مراعاة لخصوصية النبي صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى مخاطباً محمد ﷺ "﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾"(1). هذه الآية نزلت في رؤيا رآها رسول الله ﷺ، عندما أراه الله عدد الكفار في المعركة قليلاً في منامه، فأخبر بذلك أصحابه فقويت نفوسهم وحرصوا على اللقاء. فقد خص الله عزوجل الرسول ﷺ بالرؤيا، فأراه عدد الأعداء قليلا فاطمأن قلبه، فجاء الخطاب بالإفراد في قوله "يريكهم"، وقوله "منامك، وقوله "أراكهم". ثم لما كان الخوف والتردد يقع في نفوس صحابته لو علموا أنَّ عدد الأعداء كثير تحول الخطاب من الخاص إلى العام فجاء بضمير الجماعة في قوله " لفشلتم "، وقوله" لتنازعتم"، فالإفراد مراعاة لخصوصية الرسول ﷺ بالرؤيا، والجمع لعمومية الخوف والنزاع بين الصحابة لو علموا أنَّ عدد الأعداء كثير. ولعل في هذا ما يخص به الله عزوجل رسله في أمور لا تكون لغيرهم من بني البشر.

وفي قوله تعالى: "﴿فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكَ تَتَمَارَى * هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَى * أَزِفَتْ الْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ * أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَامِدُونَ * فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾"(2).

تحول الخطاب من الإفراد في قوله "تتمارى" إلى الجمع في قوله "تعجبون، وتضحكون، ولا تبكون، وأنتم سامدون، واسجدوا، واعبدوا". وقد اختلف أهل التفسير والنحو في توجيه الخطاب في "تتمارى"، فمنهم من يرى أنَّه خطاب للإنسان بوجه عام، "أي فبأي آلاء ربك تمتري"(3)، ومنهم من يرى أنَّه مخاطبة للإنسان الكافر(4)، ومنهم من يرى أنَّ الخطاب للرسول ﷺ أي بأي آلاء ربك يشككونك، وفي

---

(1) الأنفال آية 43.

(2) النجم الآيات 62،61،60،59،58،57،56،55.

(3) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، ط2، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999م، ج7، ص468.

(4) ينظر: الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ج4،ص232، وينظر: الشربيني، محمد بن أحمد، تفسير السراج المنير، دار الكتب العلمية، ج4، ص232.

هذا ينظر إلى قوله تعالى: "﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾"(1)، "أي لا يستطيعون أن يشككوك في حصول آلاء ربك التي هي نعم النبوءة، والتي منها رؤية جبريل عند سدرة المنتهى، فالكلام مسوق لتأييس المشركين من الطمع في الكف عنهم"(2)، "أي قل يا محمد لمن يشك ويجادل: بأي نعم ربك تمتري أي تشك"(3).

ولعلنا نقف مع هذا الرأي؛ ذلك لأنَّه أقرب إلى تعليل التحول في الخطاب من المفرد إلى الجمع، فبدأ الخطاب للرسول ﷺ فجعله بالإفراد، ثم تحول الخطاب إلى الذين يعجبون من حديثه ﷺ، ولا يؤثر القرآن الكريم في مسامعهم، فجاء الخطاب للجمع.

وأحياناً قد يخص الله عزوجل نبيه محمد ﷺ في الخطاب، وذلك بتحوله من صيغة الجمع إلى صيغة المفرد ففي قوله تعالى: "﴿وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾"(4). بدأ الخطاب بضمير الجماعة في قوله " استمعوا، وانصتوا، وترحمون " ثم تحول إلى المفرد في قوله "اذكر".

ويمكن لنا أن نوجه الخطاب بالآتي: "أنَّ الله تعالى أمر المسلمين بالاستماع والإنصات إذا شُرع في قراءة القرآن الكريم، ثم أرتقى من أمرهم إلى أمر الرسول ﷺ أن يذكر ربه في نفسه، حيث يراقبه ويذكره في الحالة التي لا يشعر بها أحد وهي الحالة الشريفة العليا، ثم أمره أن يذكره دون الجهر من القول، أي أن يذكره بالقول الخفي الذي لا يشعر بالتذلّل والخشوع من غير صياح ولا تصويت شديد، كما تناجي الملوك وتستجلب منهم الرغائب، وكما قال للصحابة وقد جهروا بالدعاء إنكم لا

(1) النجم آية 12.

(2) التحرير والتنوير، ج 27، 157.

(3) النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد، إعراب القرآن، تحقيق زهير غازي زاهد، عالم الكتب، بيروت، 1988، ج4، ص282.

(4) الأعراف الآيتان 204، 205.

تدعون أصمَّ ولا غائباً اربؤوا على أنفسكم"[1] أي لما فرغ من الكلام من حظ الناس نحو قراءة القرآن، أقبل على الكلام في حظ الرسول ﷺ، وهو الذكر الخاص به فأمره بأن يذكره ما استطاع[2]. فالخطاب موجه للنبي ﷺ، غير أنَّ البعض يرى أنَّ الخطاب موجه لمستمع القرآن[3].

وفي توجيه هذا الخطاب نرى أنَّه تحول إلى خطاب المفرد لأنَّه خطاب لمحمد ﷺ "فأمر اللّه عبده ورسوله محمدا أصلا، وغيره تبعا، بذكر ربه في نفسه، أي: مخلصا خاليا"[4].

ولكن لما كان الخطاب لمحمد ﷺ أصلا ولغيره من المسلمين تبعا لماذا جاء بالجمع أولاً، ثم بالإفراد مع العلم أنَّه موجه ضمنا إلى جماعة، مبدوءاً بمحمد ﷺ، ولم يأت بالجمع، فلذلك نقدم أسبابا:

1. أنَّ النص القرآني خص النبي ﷺ بالخطاب، فتحول الخطاب من الجمع إلى المفرد.
2. يُعلل الإفراد في "اذكر" مع أنّ الخطاب موجه بعد ذلك لعموم المسلمين، بأنَّ أمر النسيان لا يكون مجتمعاً، فلو قال "واذكروا ربكم إذا نسيتم" بضمير الجمع هذا يعني أنَّ الجميع يشترك في النسيان في آن واحد وهذا أمر محال، وبما أنَّ النسيان يقع في شخص دون الآخر في الزمن، أي كأن الخطاب اذكر ربك أيها الناسي، لأجل هذا كان الأولى في الخطاب أن يكون موجها للمفرد، بخلاف أمر الاستماع، والإنصات فإنه موجه للجميع لابد يقع منهم في آن واحد عندما يسمعون القرآن الكريم.

ومثله قوله تعالى: "﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ * نَحْنُ

---

(1) البحر المحيط، ج4، ص449.

(2) ينظر:التحرير والتنوير، ج9، ص240.

(3) ينظر:التفسير المنير، ج230.

(4) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق ابن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، 2000م، ص314.

جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ "[1] فلما ذكر الله مايدل على وحدانيته وقدرته وإنعامه على سائر الخلق، وبعد أن بيَّن وجوب شكر الله عزوجل على نعمه، خاطب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فقال "سبح باسم ربك " أي برئ الله ونزهه عما يقول المشركون[2].

فلما كان الحديث عن قدرة الله وعظمته جاء الخطاب بالجمع في قوله: "أفرأيتم، تشربون، أأنتم، أنزلتموه، تشكرون، تورون، أنشأتم " دلالة على التحدي وبيان لقدرته عزوجل، ولما اختص الأمر بالعبادة أمر نبيه ﷺ بالتسبيح، فجاء الخطاب رقيقا بالإفراد.

التحول في الخطاب لشمول التابع مع المتبوع (المُرسل إليه والمُرسل):

قد يأتي التحول في الخطاب لغرض شمول التابع (المُرسَل إليه) مع المتبوع (النبي المرسل).

كما في قوله تعالى" ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ "[3] فالخطاب في الفعلين "نراك، واتبعك" إلى المفرد وهو نوح عليه السلام، ثم انتقل إلى الجمع قاصداً به نوح وتابيعيه في قوله: "لكم، ونظنكم كاذبين"؛ لأنَّه لما وصفوا كل فريق من التابع والمتبوع بما ينفي سيادة المتبوع، وتزكية التابع جمعوا الوصف الشامل لهما، وهو المقصود من الوصفين المفرقين، وذلك قولهم: "ما نرى لكم علينا من فضل"، فنفوا أن يكون لنوح عليه السلام وأتباعه فضل على الذين لم يؤمنوا حتى يكون نوح عليه السلام سيداً لهم، ويكون أتباعه مفضلين بسيادة متبوعهم، وجملة "نظنكم" إبطال للمنفي كله الدال على صدقه في دعواه بإثبات ضد المنفي وهو ظنهم إياهم كاذبين؛

(1) الواقعة الآيات، 74،73،72،71،70،69،68.

(2) ينظر: الخازن، علاء الدين علي بن محمد، تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل ن دار الفكر، بيروت، 1979م، ج7 ص24، والجزائري، جابر بن موسى بن عبد القادر، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ط5، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية، 2003م، ج5، ص252

(3) هود، آية 27

لأنَّه إذا بطل الشئ ثبت ضده، فزعموا نوحا عليه السلام كاذباً في دعوى الرسالة، وأتباعه كاذبين في دعوى حصول اليقين بصدق نوح عليه السلام، بل ذلك منهم اعتقاد باطل، وهذا الظن الذي زعموه مستند إلى الدليل المحسوس في اعتقادهم "[1]. فقوله إذاً "ما نرى لكم علينا من فضل" بالجمع إنَّما هو تسجيل بأنَّ دعوة النبوة باطلة؛ لإدخاله عليه السلام والأراذل في سلك على أسلوب يدل على أنهم أنقص البشر، والظاهر أنَّ مقصودهم ليس إلا إثبات أنَّ عليه السلام مثلهم، وليس فيه مزية يترتب عليها النبوة، ووجوب الإطاعة والإتباع، فقد نفوا أولاً فضيلته عليه السلام في قوله: "ما نراك" وصرحوا بأن متبيعه وحاشهم أراذل، وهو مستلزم لنفي رؤية فضل عليه [2]؛ لأجل هذا خوطب نوح عليه السلام في الوجهين الأولين "ما نراك ،و اتبعك" منفرداً ثم في الوجه الثاني خوطب مع متبعيه فجاء الخطاب جمعاً "ما نرى لكم علينا من فضل، ونظنكم"[3].

وفي قوله تعالى: "﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾"[4]. جيء بضمير المتكلم المشارك في قوله "أنلزمكموها" للإشارة إلى أنَّ الإلزام لو فُرض وقوعه لكان له أعوان عليه وهم أتباعه، فأراد ألا يهمل أتباعه وأنهم أنصار له لو شاء أن يهيب بهم، والقصد من ذلك التنويه بشأنهم في مقابلة تحقير الآخرين لهم[5].

وعندما شرع نوح عليه السلام في صناعة السفينة، سخر منه قومه فجاء خطابه

---

(1) التحرير والتنوير، ج12، ص49.

(2) ينظر: روح المعاني، ج12، ص37-38

(3) ينظر: الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، ج2، ص713 والبيضاوي، تفسير البيضاوي، ج3،ص133 (-http://shamela.ws/browse.php/book-23588#page 483، المكتبة الشاملة) 20 تاريخ الاسترجاع 1433/10/20هـ ، وتفسير السراج المنير، ج2، ص44، والفاسي، أحمد بن محمد، البحر المديد، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م، ج3، ص284

(4) هود، آية 28.

(5) ينظر: التحرير والتنوير، ج12، ص52، وروح المعاني، ج12، ص41.

لهم عليه السلام مشتملا على تابعيه؛ لأنهم معه في الإيذاء مما يلقونه من قومهم. قال تعالى"﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾"(1).

فبدأ الخطاب بالفعل "قال" أي نوح عليه السلام، ثم قال "منا، فإنّا، نسخر" وكلها دالة على على الجمع، علماً أن المتكلم نوح عليه السلام. "فجمع الضمير هنا يشير إلى أنَّهم يسخرون منه في عمل السفينة ومن الذين آمنوا به، إذ كانوا حوله واثقين بأنَّه يعمل عملاً عظيماً"(2).

وقد ظهر هذا التحول لشمول التابع مع المتبوع في الخطاب في سورة الشعراء ففي قوله تعالى"﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾"(3). فالخطاب هنا لموسى عليه السلام ومن آمن معه، أي اسر ليلاً بمن معك حتى لا يدرككم فرعون قبل الوصول إلى البحر(4)، فجاء بالفعل الدال على المفرد "أسر" ولم يقل أسروا؛ لأنَّ الأمر يكون للمتبوع أولاً، ثم قال "إنكم" فأكد معنى شمول التابع للمتبوع في الخطاب، فأمر الاتباع لا يتعلق بمسألة الإيمان فقط، وإنَّما هو اتباع حركي، فاللّه عزوجل أمر موسى ومن معه أن يتوجهوا إلى البحر، فيلحقه فرعون وجنوده فيغرقهم اللّه وينقذ موسى عليه السلام وقومه، ولذلك كان لابد من الاتيان بضمير الجمع في "إنكم" لشمول قوم موسى الذين آمنوا معه في الخطاب.

ولعل البعض يرى أنَّه لا تحول في هذه الآية؛ لأنَّ اللّه عزوجل أمر موسى أن يسري بقومه، فلا غرابة إذاً إن يأتي الخطاب بضمير الجماعة بعد ذلك. إلا أنَّ ما نناقشه هنا مجيء الفعل لخطاب موسى بالإفراد "أسر" متبوعة بلفظة "بعبادي"، فكان الخطاب

(1) هود آية 38.

(2) التحرير والتنوير، ج12، ص88، وينظر: أبو السعود، محمد بن محمد، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج4، ص207، وروح المعاني، ج12، ص51.

(3) الشعراء آية 52.

(4) ينظر: روح المعاني ج19، ص81، وإرشاد العقل السليم ج6، ص244.

منفصلاً، ومن ثم جمعهم في خطاب واحد في قوله "إنكم".

وفضلاً عن شمول التابع مع المتبوع في الحكم قد يأتي التحول لدلالة على قدرة الله عزوجل، ففي قوله تعالى"﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾"[1] جاء الخطاب بداية للمفرد بقوله: "اتبع، ربك"، ثم تحول إلى الجمع " تعملون". يعلق الطبري على ذلك يقوله: "إنَّ الله بما تعمل أنت وأصحابك من هذا القرآن وغير ذلك من أموركم وأمور عباده خبير، أي لا يُخفى عليه من ذلك شيء"[2]، فالأمر له ﷺ بداية، ثم هوأمر لأمته باتباع القرآن لهذا جاء بخطابه وخطابهم بما تعملون[3].

من ناحية أخرى فإنَّ بلاغة النص القرآني اقتضت هذا التحول، فالأمر "اتبع" كان لنبيه ﷺ؛ لأنَّ الوحي يكون للرسل لا لغيرهم، وهو بدوره يوصل ما أوحي إليه إلى المتلقين لهذا الدين، فجاء الخطاب بالإفراد، ثم لما كان الأمر خاصاً بالخبرة التي تدل على العلم الواسع، الذي هو من أسماء الله عزوجل "الخبير" كان لابد من الجمع في قوله: "تعملون"؛ لأنَّ الحديث هنا عن صفة من صفات الله عزوجل، فهو ليس خبير بما يعمل الرسول ﷺ فقط، وإنَّما هو صاحب خبرة لا تتجزأ؛ لذلك جاء الخطاب بالجمع بخلاف الوحي الذي خصه الله عزوجل لنبيه فكان الخطاب بالإفراد.

وأحياناً يأتي المعنى - شمول التابع مع المتبوع - متخذاً صورة التحول من المثنى إلى الجمع كما في قوله تعالى"﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾"[4]

وقف النحاة والمفسرون عند هذه الآية واختلفت آراؤهم في هذا التحول في الخطاب، فبعد أن كان الخطاب بالمثنى "فأزلهما"، وفأخرجهما، كانا "تحول إلى

(1) الأحزاب آية 2.

(2) جامع البيان، ج2، ص202.

(3) فتح القدير ج4، ص70.

(4) البقرة آية 36، هذه الآية ذكرتها زاهدة عبدالله ضمن النماذج التي لم تقدم لها تحليلاً ينظر: العدول عن السياق في القرآن الكريم ص117.

الجمع بقوله" اهبطوا" وقدموا لذلك وجوهاً أهمها:

الأول: "أنَّ إبليس داخل في الخطاب لقوله: "فأزلهما الشيطان" "فقلنا اهبطوا" يعني آدم وحواء وإبليس"[1]. وقد يقول قائل: إنّ إبليس لما أبى من السجود صار كافرا، وأُخرج من الجنة "﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾"[2] يعلل الفخر الرازي ذلك بقوله "وإنما هبط منها لأجل تكبره، فزلة آدم عليه السلام إنما وقعت بعد ذلك بمدة طويلة، ثم أمر بالهبوط بسبب الزلة، فلما حصل هبوط إبليس قبل ذلك كيف يكون "اهبطوا " متناولاً فيه، قلنا: إنّ الله تعالى لما أهبطه إلى الأرض فلعله عاد إلى السماء مرة أخرى لأجل أن يوسوس إلى آدم وحواء فحين كان آدم وحواء في الجنة قال تعالى "اهْبِطَا"[3] ولما خرجا من الجنة واجتمع إبليس معهما خارج الجنة أمر الكل فقال اهبطوا"[4].

الرأي الآخر: يرى أن المقصود آدم وحواء وذريتهما؛ لأنَّهما لما كانا أصل الإنس جعلا كأنهما الإنس كلهم[5]، وقد ضعف هذا الرأي الفخر الرازي؛ لأنَّ الذرية ما كانوا موجودين في ذلك الوقت فكيف يتناولهم الخطاب[6].

والذي نراه أنَّ تعليل الفخر الرازي بعدم شمول ذرية آدم وحواء في الخطاب ليس من الدقة بمكان، فهم وإن خرجوا من الخطاب المباشر فهم داخلون فيه على المستقبل وقد علل ذلك ابن عاشور بقوله: "بني البشر لم يخرجوا من الخطاب لقوله تعالى "بعضكم لبعض عدو"، إذ قد يراد به عداوة بعض أفراد أنواع البشر فيكون ذلك إعلاما لهما

(1) تفسير الفخر الرازي، ج1، ص389، وينظر: الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد، الكشف والبيان، ط1، تحقيق محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق نظير الساعدي دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 2002م، ج1، ص183.

(2) الأعراف آية 13.

(3) طه آية 23.

(4) تفسير الفخر الرازي – ج1ن ص388.

(5) ينظر:الكشاف، ج1، ص157.

(6) ينظر: تفسير الفخر الرازي – ج1ن ص388.

بأثر من آثار عملهما يورث في بنيهما"[1].

فالتحول من المثنى إلى الجمع كان ضروريا؛ ذلك لأن الوسوسة تمت لآدم وحواء بأن يأكلا من الشجرة فجاء الخطاب بلفظ المثنى، ولكن لما كان العقاب أدخل إبليس في الخطاب، إذ لا وجود لإبليس في مكان لا يوجد فيه بشر فلما فرغت الجنة من آدم وحواء وأنزلا إلى الأرض كان لابد أن يكون الشيطان معهما؛ لإكمال امتحان الله عزوجل لهما، وبالتالي امتحان لبني البشر لاحقاً بتحدي وسوسة إبليس، فجاء الخطاب لهم جميعاً: آدم، وحواء، وإبليس، أما بني البشر فهم مشمولون بمعنى الإهباط أي وقت أمر الله عزوجل آدم وحواء بالهبوط لم يقصد بني البشر في الخطاب المباشر لأنَّهم غير موجودين ولكنهم في الخطاب البعيد مشمولون. "وكأن ذلك انتقال من فعل خاص وقع من آدم وزوجته إلى تعميم نتائجه على جميع بني البشر"[2].

وفي قوله تعالى"﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾"[3] تحول الخطاب من المثنى موسى وهارون "اذهبا" إلى الجمع " معكم" فقد أجراهما مجرى الجمع وفي ذلك آراء أشهرها:

1. أنَّ الخطاب بالجمع تعظيماً لهما ولشرفهما[4].
2. أن يكون " معكم" خطابا لموسى وهارون عليهما السلام ؛لأنَّ الاثنين جمع[5].
3. أنّ الخطاب لموسى وهارون ومن أرسل إليهم[6].

(1) التحرير والتنوير، ج1، ص434-435.

(2) التفات العدد في نماذج من القرآن الكريم، ص722.

(3) الشعراء آية 15. هذه الآية ذكرها حسن طبل في الجدول الذي أودعه في نهاية دراسته وعدها من التفات العدد، ص183

(4) ينظر: تفسير السراج المنير، ج3، ص30، والشنقيطي، محمد الأمين، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر، بيروت، ج29، ص5.

(5) ينظر: الكتاب، ج،3ص622، والفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد، معاني القرآن، تحقيق أحمد يوسف نجاتي،ومحمد علي نجار، وعبد الفتاح إسماعيل شلبي، مصر، ج5، ص67 - 68، وفتح القدير، ص138.

(6) ينظر: معاني القرآن ج 5، ص67 - 68ن والتحرير والتنوير ج18، ص108-109،واللباب في علوم الكتاب ج15، ص12، والبحر المحيط ج7، ص9.

4. الخطاب لموسى وهارون ومن يتبعهما من بني إسرائيل فيضمن الكلام البشارة بالإشارة إلى علو أمرهما[1].

والذي نراه في هذا التحول أنَّ الخطاب موجه لموسى وهارون والقوم الذين آمنوا معهما من بني إسرائيل، فالأمر متعلق بحفظ موسى وهارون وبالتالي فإنه حفظ لمن يتبعهما، كما ذكرنا في قصة نوح والسفينة. وما أدل من ذلك مجيئه بالظرف "مع" في "معكم" الذي يدل على المصاحبة.

ولعله في إبراز هذه الدلالة العامة - التحول في الخطاب لشمول التابع مع المتبوع - فضلاً عن الدلالات الفرعية المستنبطة، أرى أننا قد حلقنا قليلا في أفق نظرية التلقي فقد قدم النص شيئاً من الدهشة لما يتوقعه القارئ مما أحدث لأفقه تغييراً، وهذا الأمر لعله جاء من خلال تجاوز سطح النص إلى البحث عن المضمرات في النص بتقديم افتراضات تأويلية، حيث أظهرنا علاقات جديدة تجمع بدورها معلومات النص البارزة والمفيدة، والصريحة والضمنية، دون الدخول بافتراضات وأحكام مسبقة تحكم تلقي النص قبل قراءته[2].

التحول في الخطاب مراعاة للاشتراك في المعنى أو الأصل اللغوي:

قد يتعدد المعنى للعنصر اللغوي الواحد[3] وعليه فإن تحول الخطاب في النص القرآني يأتي مراعاة للاشتراك في المعنى[4] أو مراعاة للأصل اللغوي، ففي قوله تعالى

(1) روح المعاني ج19، ص66.

(2) ينظر: الغامدي، منى محمد، (1429)، تلقي شعر أبي تمام في التراث النقدي عند العرب الآمدي أنموذجاً، النادي الأدبي، الأحساء. ص35، نقلاً عن البشير، محمد عبد العزيز، تلقي الرواية السعودية في الصحافة، ص28.

(3) حسان، تمام (2007)، اجتهادات لغوية، ط1، علم الكتب، القاهرة، ص176.

(4) أشار أحمد مختار عمر إلى الكتب التي درست المشترك اللفظي وتعدد المعنى في القرآن الكريم، للاستزادة ينظر: عمر،أحمد مختار (1982)،علم الدلالة، ط1، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ص147 - 150.

" ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ "(1) نلاحظ قوله " ولدا" أنه عطف عليها قوله "عباد" فتحول الخطاب من المفرد إلى الجمع؛ وذلك لصلاحية لفظ الولد على الجمع "فالولد هنا للجمع وقد يكون الواحد والجمع ولدا"(2)، وقد جاء في المعاجم اللغوية أنَّ الولد اسم يجمع به الواحد والكثير والذكر والأنثى(3). فالتحول هنا جاء لاشتراك المعنى اللغوي بين الكلمتين، وفي هذا تنوع في المفردات في تقديم المعنى مما يلفت انتباه السامع أو القارئ للمعنى المقصود. فضلاً عن قدر هذه الملائكة عند اللّه عزوجل.

وفي قوله تعالى: "﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ "(4). كان الحديث عن الطائفة بالإفراد فقال "آمنت، وكفرت" ثم تحول الخطاب إلى الجمع في قوله "الذين، وآمنوا، وعدوهم، وأصبحوا، ظاهرين" بضمائر الجمع وكلها تعود على الطائفة. وقد عُلل ذلك لصلاحية معنى كلمة طائفة للإفراد والجمع. "فكلمة طائفة تعني الجماعة من الناس وتقع على الواحد"(5)، و"الطائفة هي القطعة من الشئ أو الواحد فصاعداً أو إلى الألف أو أقلها"(6)، و"الطائفة من الشئ جزء منه، وهي الرجل الواحد إلى الألف"(7).

ولعل في هذا التحول فضلاً عن الاشتراك في المعنى اللغوي أنَّ اللّه عزوجل أراد أن

(1) الأنبياء آية 26.

(2) الجامع لأحكام القرآن، ج11، ص281.

(3) ينظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، مادة ولد. وينظر: الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، تحقيق محمود طاهر، مكتبة ناشرون، بيروت، 1995م، مادة ولد.

(4) الصف آية 14.

(5) الجزري، أبو السعادات المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، 1979م، ج3، ص336، الطاء مع الياء.

(6) الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مادة طاف.

(7) لسان العرب، مادة طاف.

يبث الطمأنية لنفوس الذين يؤمنون به فجاء الخطاب جمعاً؛ لأنَّ خطاب المفرد يدل على الخصوصية في الجزاء، ففعل الإيمان يحتاج إلى تعظيم في الجزاء والثواب، فضلاً عن ذلك أنَّ الكفر وإن وقع في جماعة فإن احتمالية الإيمان من احد أفراد هذه الجماعة واردة، وعليه خوطبت طائفة الكفر بالإفراد، وطائفة المؤمنين بالجمع؛ لتبقى ظلال الإيمان عامة وشاملة، وظلال الكفر محدودة قابلة للتحول.

وأحياناً يأتي التحول من المفرد إلى الجمع؛ لأنَّ المفرد اسم جنس يشترك فيه المفرد والجمع، ففي قوله تعالى "﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾"[(1)]. بدأت الآيات بخطاب الإنسان وعبرت عنه بلفظ المفرد بعود الضمير الهاء عليه في "رددناه"، ثم تحول الخطاب إلى صيغة الجمع في قوله "الذين"

"فالإنسان هنا بمعنى الناس"[(2)]، وقوله " رددناه" كناية الإنسان، لأن الإنسان وإن كان في لفظ واحد فإنه في معنى الجمع؛ لأنَّه يعنى الجنس؛ لذلك جاز أن يضاف إلى جماعة فقال "أسفل سافلين"، ولو كان مقصوداً به واحداً بعينه لم يجز ذلك، كما لا يقال "هذا أفضل قائمين"، ولكن يقال "أفضل قائم"[(3)]. فتعريف الإنسان يجوز أن يكون تعريف الجنس، وهو التعريف الملحوظ فيه مجموع الماهية مع وجودها في الخارج في ضمن بعض أفرادها أو جميع أفرادها ويحمل هذا على معنى "خلقنا جميع الناس في أحسن تقويم"[(4)]؛ ولهذا صح أن يكون "الذين آمنوا استثناء من الإنسان الذي هو بمعنى الناس على الصحيح"[(5)]. ولعل في هذا الاستثناء دلالة على احتمالية الإيمان الكبيرة من

(1) التين الآيات 4، 5، 6.

(2) السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد، تفسير القرآن، تحقيق ياسر إبراهيم، وغنيم عباس غنيم، دار الوطن، الرياض، السعودية، 1997م، ج6، ص204، وينظر جامع البيان، ج4، ص110، والتحرير والتنوير ج3، ص423، والجامع لأحكام القرآن ج2، ص180، وروح المعاني،ج3، ص176.

(3) ينظر جامع البيان، ج24، ص510.

(4) ينظر: التحرير والتنوير ج3، ص427.

(5) الجامع لأحكام القرآن، ج2، ص180.

قِبل الناس الذين مُهد لهم بخطاب النعمة والخلق القويم، ثم الاتباع بقدرة الله عزوجل على رده إلى أسفل السافلين، مما يبث في نفس القارئ الخوف من عدم الاستقرار للحالة الحسنة، فيجعل الذين يفكرون بالالتزام والايمان تزداد بسبب المقدمة المشتملة على الضدين الترغيب، والترهيب - الخلق الحسن، أسفل العمر - والنيجة التي التي تشكلت في قوله "إلا الذين آمنوا"، ولو كان الاستثناء بالمفرد "إلا الذي" لَدَلَّ على ضعف احتمالية الإيمان من البشر، ولكن تحول الخطاب ومجيئه بالجمع زاد من هذه الاحتمالية.

ومثل ذلك قوله تعالى"﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواوَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾"(1). غير أن أبا عبيدة عد ذلك مجازا ؛لأنَّ الإنسان هنا في موضع الأناسي؛ لأنه يستثني الجميع من الواحد، وإنَّما جاز هذا فيما أظهر لفظ الواحد منه لأنَّ معناه على الجميع، فمجازه مجاز أحد يقع معناه على الجميع وعلى الواحد(2) ولعله غفل في هذا التعليل أنَّ "ال" في كلمة الإنسان للجنس "التي تدخل على الواحد فتجعله يفيد الشمول والإحاطة بجميع أفراده إحاطة حقيقية لا مجاز فيها، ولا مبالغة بحيث يصح أن يحل محلها لفظة "كل" ولا يتغير المعنى نحو "النهر عذب، النبات حي" فلو قلنا "كل نهر عذب، كل نبات حي" بوضع "كل" محل "ال" لم يتغير المعنى، وعلامتها أن يصح الاستثناء مما دخلت عليه لأن المستثنى لا بد أن يكون أقل أفراد من المستثنى منه نحو قوله تعالى"﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواوَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾"، ومن علامتها أيضاً أنه يصح أن ينعت الاسم بها بالجمع نحو قوله تعالى "﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾"(3) "(4). فلفظ الإنسان إذا عام؛"

---

(1) العصر الآيات 1، 2، 3.

(2) ينظر مجاز القرآن نج2 ص310.

(3) النور آية 31.

(4) ينظر النحو الوافي ج1،ص426، والأستراباذي، رضي الدين، شرح الرضي على الكافية، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، جامعة قاريونس، 1978م، ج1، ص23، الأندلسي، أبو حيان، ارتشاف الضرب من

لأنَّ اللفظ إذا استثنينا منه وأخذنا وأخرجنا منه فهو لفظ عام"[1]، وتعريف الإنسان تعريف للجنس مراد به الاستغراق، وهو استغراق عرفي لأنَّه يستغرق أفراد النوع[2]. "فالمراد بالإنسان الناس كافة"[3] ولهذا كله جاز استثناء الجمع منه. وفي ذلك أيضاً دلالة على احتمالية الإيمان الكبيرة لذلك جاء الاستثناء بالجمع، فقد أفرد الخسر؛ لأنَّ الإنسان إذا لم يلتزم بما أمر الله فإنه في خسر، وهذا الخسران لا يقع إلا عليه؛ لذلك ظهر الخطاب بالإفراد، أمَّا الإيمان فلأنه أعم وأشمل وهو هدف الخطاب الإسلامي، والخطاب الرباني جاء دالاً على الكثرة فتوجه الخطاب على الجمع بهذا الإستثناء، فضلاً عن ذلك فإنَّه يحمل معنى ينعكس ظلاله على قارئ القرآن، وهو الاطمئنان لهذه الكثرة المؤمنة؛ لأنَّ القارئ سيرى نفسه مشمولاً بهؤلاء الذين استثنوا من الخسران، بخلاف الاستثناء لو كان بالإفراد "إلا الذي آمن" فإنه يعكس ظلال الخوف، فالمستثنى هنا مفرد، وهذا يوقع في نفس القارئ عدم الاطمئنان والخوف من تصنيفه عند الله عزوجل؛ "وعليه فقد ساغ الاستثناء هنا على حد تعبير بعض المحدثين في تناولهم هذه الآية"[4]

وقد يأخذ هذا السبب – مراعاة الأصل – صورة التحول من المثنى إلى المفرد، ففي قوله "﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾"[5] جاء الخطاب بقوله "آتت" ولم يقل "آتتا" علماً أنَّ القول بدأ بخطاب المثنى "كلتا"، والسبب في ذلك كما يرى

لسان العرب، ط1، تحقيق رجب عثمان محمد، مراجعة رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998م، ج2، ص986.

(1) تفسير الشعراوي، ج5، ص2715، http://shamela.ws/index.php/book/1083، مطابع أخبار اليوم، 1433/10/22هـ

(2) ينظر: التحرير والتنوير، ج30ن ص530-531.

(3) ابن الشجري، هبة الله بن علي العلوي، أمالي ابن الشجري، ط1، تحقيق محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1992م، ج2، ص5.

(4) ينظر: النحو والدلالة، محمد حماسة، ص60.

(5) الكهف آية 33. هذه الآية ذكرها حسن طبل في الجدول الذي أودعه في نهاية دراسته وعدها من التفات العدد، ص181.

بعض المفسرين أنَّ المعنى أن كل واحدة منهما آتت أكلها، أي أعطت كل واحدة من الجنتين أكلها[1].

والذي عليه أكثر النحاة أن "كلتا" اسم مفرد يدل على التثنية[2]، وقد عللوا ذلك من وجوه:

1. أنهما بالألف في الأحوال الثلاث إذا أضيفا إلى الظاهر، وليس المثنى كذلك.
2. أنه ينطق بالواحد منهما فلا يقال في الواحد "كل" بخلاف المثنى.
3. أنهما يضافان إلى المثنى ولو كانا مثنيين للزم أن يضاف الشيء إلى نفسه، وهو باطل.
4. أن الضمير يرجع إليه بلفظ الإفراد كما في قوله تعالى "كلتا الجنة آتت" ولو كان مثنى في اللفظ لم يجز ذلك كما لا يجوز " الرجلان قام"[3].

وعليه فهما اسمان ملازمان للإضافة ولفظهما مفرد ومعناهما مثنى، ولذلك أجيز في ضميرهما اعتبار المعنى فيثنى، واعتبار اللفظ فيفرد، إلا أنَّ اعتبار اللفظ أكثر، وبه جاء القرآن الكريم "كلتا الجنتين أتت" ولم يقل آتتا، فلما كان لـ "كلا وكلتا" حظ في الإفراد، وحظ في التثنية أجريا في إعرابهما مجرى المفرد تارة، ومجرى المثنى بحالة الإضافة تارة أخرى[4].

وفي قوله تعالى "﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾"[5] جاء بالمفرد "رسول" بعد

---

(1) ينظر: تفسير الخازن، ج4، ص212، وتفسير السراج المنير ج1، ص53.

(2) ينظر: جامع البيان، ج18، ص19، وتفسير الفخر الرازي، ص2914، والتحرير والتنوير، ج15، ص317، والعكبري، أبو البقاء، اللباب في علل البناء والإعراب، ط1، تحقيق غازي مختار طليمات، 1995، ج1، ص399، والأشموني، علي بن محمد، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ط1، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1955، ج1، ص33، وشرح الرضي على الكافية، ج1، ص94، وعيد، محمد، النحو المصفى، مكتبة الشباب، ص59.

(3) ينظر: اللباب في علل البناء والإعراب، ج1، ص399

(4) ينظر، شرح الأشموني، ج1، ص33.، وينظر: ابن الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن محمد، أسرار العربية، تحقيق محمد بهجة البيطار، مطبوعات المجمع العلمي، دمشق، ص286.

(5) الشعراء آية 16. هذه الآية ذكرها حسن طبل في الجدول الذي أودعه في نهاية دراسته وعدها من التفات

المثنى "فأتيا" ولم يقل رسولا ، ولنا أن نجمل سبب هذا التحول بما يأتي:

أولاً: أنَّه أراد رسالة ، أي ذو رسالة رب العالمين، فموسى وهارون هما المبعوثان في مهمة واحدة، وليس لكل منهما رسالة منفصلة بل رسالتهما واحدة لم تتعدد وإن تعدد المرسل[1] فالرسول بمعنى الرسالة يؤنث ويذكر، والرسول الرسالة والمرسل[2].

ثانياً: أن صيغة فعول وفعيل يستوي فيها المذكر والمؤنث والواحد والجمع ،مثل عدو، صديق[3].

ثالثا: أن يكون الرسول في معنى الواحد ،والاثنين ،والجمع تقول العرب: هذا رسولي ووكيلي، وهذان رسولي ووكيلي، وهؤلاء رسولي ووكيلي[4].

والذي يبدو أنَّ سبب التثنية فضلاً عن الأسباب التي ذكرت دلالة أخرى تضمنت معنى القوة والحزم، ذلك أنّ ورودها بالتثنية يحمل ظلال الاختلاف بين المُرسلين، وكأن لكل منهما رسالة تختلف عن الأخرى، أمَّا ورودها بالإفراد يحمل ظلالا تدل على أنَّ المبعوثين واحد، وإن كانا رسولين فهما في الرأي والمواجهة لفرعون واحد. وليس هذا الأمر بغريب عن أسلوب الدعوة الإسلامية عند الرسل، فقد توجه الخطاب النبوي عندهم للجماعة، إلا أنَّه كان يركز على أنَّ الدعاة وإن تعددوا إلا أنَّهم يسعون لهدف واحد، وهذا ما انتبه إليه المدعو إليهم، فكانت الاستجابة عندهم أسرع، والخوف أوسع بسبب هذه الوحدة في الخطاب الديني للنبي صلى الله علية وسلم، وصحابته، مما جعل المدعو إليهم يرونهم كأنهم بالإجمال واحدا، ولا شك أن في ذلك

العدد، ص183.

(1) ينظر تفسير الشعراوي، ج10، ص 6123 http://shamela.ws/index.php/book/1083 ،مطابع أخبار اليوم 1433/10/22هـ وينظر التفات العدد في نماذج من القرآن الكريم، ص722.

(2) لسان العرب مادة رسل.

(3) لسان العرب، مادة رسل، والتحرير والتنوير، ج19، ص109.

(4) ينظر: الكشف والبيان، ج7، ص160، السامرائي، فاضل، الأسئلة والأجوبة المفيدة في لطائف بعض الأيات القرآنية، ص309/ http://www.islamicbook.ws/qbook%5Calom/lmsat-bianit-.pdf تاريخ الاسترجاع 20 - 10- 1433هـ

تماسكا وقوة في أسلوب الدعوة.

وقد أشارت الباحثة زاهدة عبد الله محمد في دراستها لهذه الآية أنَّ سبب التحول يكمن في أنّ هارون كان لسان موسى لتميزه عنه بفصاحة اللسان وقوة الحجاج وكان موسى عيي اللسان فجعل الله منهما كياناً واحداً لتوصيل المطلوب وتأكيده، ثم أضافت: إنّ صلة القرابة بين الاثنين وصلة الممارسة السياسية معا تقودنا إلى النظر إليهما بوصفهما كياناً واحداً[1].

غير أن تخريج الباحثة هذا لا يستقيم لأننا نلحظ في موطن آخر في القرآن الكريم قوله تعالى" ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾"[2] فقد جاء الخطاب بلفظ "رسولا"[3]، ولعلنا نعلل ذلك بأنَّ سياق النص القرآني هنا فيه معنى الطلب حيث أُتبعت اللفظة بقوله تعالى "فارسل"، فمعنى الطلب هنا يحمل ظلالاً لا ترتقي إلى معنى القوة لذلك كان الخطاب بالمثنى، بخلاف الآية السابقة التي جاء الخطاب فيها خطابا إخباريا عن الله عزوجل، بأنه رب العالمين، ولا شك أنَّ هذا الخطاب فيه معنى التحدي الذي بسببه جاء الخطاب بالإفراد لما وضحناه ما لهذا الأسلوب من دلالة في الخطاب. فضلاً عن ذلك فإن الخطاب يتفق مع السياق في طلب إرسال بني اسرائيل، فإلى جانب موسى رسول آخر، مما يتطلب تصديق فرعون ليضيف إلى الرسولين بني اسرائيل.

وقد يتخذ التحول صورة الانتقال من المثنى للجمع مراعاة للاشتراك اللغوي بين الصيغتين، ففي قوله تعالى" ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾"[4] تحول الخطاب من المثنى "يحكمان" إلى الجمع "لحكمهم". وقد

(1) ينظر: العدول عن السياق في القرآن الكريم، ص119.

(2) طه آية 47.

(3) أشار حسن طبل إلى سبب الاختلاف بين رسول ورسولا لمعرفة ذلك ينظر، الالتفات في البلاغة العربية، ص96.

(4) الأنبياء آية 87. وهذه الآية ذكرها حسن طبل في الجدول الذي أودعه في نهاية دراسته وعدها من التفات

ناقش المفسرون هذا التحول فمنهم من يرى أن قوله "لحكمهم" يعني: حكم الحاكِمَين والمتحاكمين، أي داوود وسليمان والقوم الذين حكما بينهم [1]، وإلى مثل ذلك أشار الفخر الرازي بقوله "إنَّ الحكم كما يضاف إلى الحاكم، يضاف إلى المحكوم له، فإذا أضيف إلى الحكم والمتحاكمين كان المجموع أكثر من الاثنين"[2]

وما عليه الأكثر أنَّ الاثنين أقل الجمع[3] واستدلوا على ذلك بقوله تعالى" ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ "[4]

وهو يريد أخوين[5] وإلى مثل ذلك ذهب النحاة، يقول سيبويه: "سألت الخليل رحمه الله عن ما أحسن وجوههما، فقال: لأنَّ الاثنين جميع، وهذا بمنزلة قول الاثنين: نحن فعلنا ذلك ولكنهم أرادوا أن يفرقوا بين ما يكون منفردا وبين ما يكون شيئا من شيء، وقد جعلوا المفردين أيضا جميعا"[6] وذكر عباس حسن في تعريفه لجمع المذكر السالم: هو ما دل على أكثر من اثنين، ثم يعلق على ذلك بقوله: هذا في اصطلاح النحاة، أما اللغويون قد يطلقون الجمع على المثنى فالجمع عندهم ما دل على اثنين أو أكثر، ثم يؤيد ذلك بشواهد في مقدمتها القرآن الكريم "وكنا لحكمهم شاهدين"[7]

العدد ينظر: ص182، وذكرتها زاهدة عبد الله ضمن النماذج التي لم تقدم لها تحليلاً ينظر: العدول عن السياق في القرآن الكريم ص123.

(1) ينظر: تفسير البيضاوي، ج4،ص 57 (http://shamela.ws/browse.php/book-23588#page-701، المكتبة الشاملة) تاريخ الاسترجاع 1433/10/22هـ ، وجامع البيان، ج18، ص475.

(2) تفسير الفخر الرازي، ص3155، وينظر الكشاف، ج3، ص129، واللباب في علوم الكتاب، ج1، ص272.

(3) ينظر: السراج المنير، ج2، ص204، ومعاني القرآن، ج2، ص203،و تفسير السعدي، ج1، ص166، وابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، زاد المسير في علم التفسير، ط3، المكتب الإسلامي، بيروت، 1404هـ، ج4، ص137.

(4) النساء آية11.

(5) السراج المنير ج2، ص404.

(6) الكتاب، ج2، ص48

(7) النحو الوافي، ج1، ص119. وينظر المعنى اللغوي الزبيدي، محمد بن محمد، تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، ج29، ص74.

وفيما يبدو أن التثنية وضع لفظها بعد الجمع لمسيس الحاجة إلى الجمع كثيرا، ولهذا لم يوجد في سائر اللغات تثنية، والجمع موجود في كل لغة، لذلك قال بعضهم أقل الجمع اثنان، كأن الواضع قال الشئ إما واحد، وإما كثير لا غير فجعل الاثنين على حد الكثرة[1].

وقد يأتي هذا التحول منتقلا من صيغة الجمع إلى المفرد كما في "﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾"[2] فإننا نلحظ التحول من خطاب الجمع "نخرجكم" إلى صيغة المفرد "طفلاً"[3] وهنا يطرح سؤال وهو ما وجه الإفراد في "طفل" مع أنَّ المعنى أطفالاً. يجيب العلماء على ذلك بقولهم: وحّد الطفل وهو صيغة للجميع ؛ لأنَّه مصدر مثل "عدل"[4]. والظاهر من استقراء اللغة العربية أنَّ من أساليبها أنَّ المفرد إذا كان اسم جنس يكثر إطلاقه يُراد به الجمع مع تنكيره، كما في هذه الآية، وتعريفه بالألف واللام وبالإضافة. فمن أمثلته مع التنكير قوله تعالى"﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾"[5] أي أنهار ومن أمثلته مضافا قوله تعالى" أَوْ مَا مَلَكْتُم

---

(1) السيوطي، جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ط1، تحقيق فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988، ج1، ص39.

(2) الحج آية 5، هذه الآية ذكرها حسن طبل في الجدول الذي أودعه في نهاية دراسته وعدها من التفات العدد، ص182، وذكرها نزيه إعلاوي، ولم يعدها من التحول في شيء، لأنَّ صيغة طفل مما يستوي فيها المذكر والمؤنث والجمع. ينظر: التفات العدد في نماذج في القرآن الكريم ص718. ومثلها "يخرجكم طفلاً" غافر آية 67.

(3) يرى بعض الباحثين أن هذه اللفظة ممن يستوي فيها المذكر والمؤنث والجمع لذلك فهي ليس هذا من الانتقال أو التحول في الصيغة. ينظر: التفات العدد في نماذج من القرآن الكريم، ص718. وينظر آراء العلماء في هذا التحول: أسلوب الالتفات في البلاغة العربية، ص92 - 93

(4) أضواء البيان، ج3، ص38.

(5) القمر آية 54

مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ"[1] أي أصدقائكم [2]. فـ "طفلاً" في موضع أطفال[3]، فهي من لفظ الآحاد التي استغنى بلفظها عن لفظ الجمع[4] وبالرجوع إلى المعاجم العربية نجدها تشير إلى مثل ذلك. يذكر ابن منظور في قوله عزوجل" ثم نخرجكم طفلاً": "قال الزجاج طفلاً موضع أطفال وكأن معناه ثم يخرج كل واحد منكم طفلاً "[5] ومنه قوله تعالى "﴿الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾"[6] حيث ذكر الطفل واحدا وأراد جميعا.[7].

ومن جانب آخر يرى بعض الباحثين أن اللفظة خاصة بمعنى الصغر لذلك جاء بالإفراد فالصغر يناسبه الإفراد[8].

وكذلك قد يأتي التحول مراعيا التوسع في استخدام اللفظ متخذاً صورة الانتقال من الجمع إلى المثنى كما في قوله تعالى"﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾" وقوله تعالى "﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾"، وقوله تعالى"﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾"[9] ففي هذه الآيات نلحظ الانتقال من صيغة الجمع "السموات (جمع)، الأرض" إلى صيغة المثنى "حفظهما ،بينهما". يرى بعض المفسرين أنَّ

(1) النور آية 61.

(2) ينظر أضواء البيان، ج3، ص38 - 40، والكشاف ج3، ص237.

(3) ينظر: أسرار العربية ص223.

(4) ينظر: أمالي ابن الشجري، ج2، ص48.

(5) لسان العرب، مادة طفل وينظر: الزجاج، أبو إسحاق، إعراب القرآن، تحقيق ودراسة إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي، القاهرة، ج2، ص765 - 766، حيث ذكر لذلك أمثلة من القرآن الكريم.

(6) النور آية 31.

(7) ينظر: مختار الصحاح، مادة طفل.

(8) ينظر أسلوب الالتفات في البلاغة العربية، ص93، وقد أشارت إلى هذه الآية زاهدة عبد الله محمد، ورأت أن السبب هو تشابه بني الإنسان في المرحلة الأولى من الطفولة مما يلغي جميع الاختلافات كافة أي أنهم في هذه المرحلة ماهية واحدة. ينظر: العدول عن السياق في القرآن الكريم، ص117.

(9) مريم: 65.

المقصود أن الله له ملك السموات كلها والأرض كذلك وما بينهما أي ما بين كل اثنين منها[(1)].

والذي نراه أنَّ النص القرآني يخاطب الإنسان أحيانا بما يرى ويشاهد، فالإنسان تعوَّد على رؤية السماء الواحدة، والأرض الواحدة وإن كانتا سماوات وأكثر من أرض، فجاء أولا بالجمع؛ دلالة على الحقيقة العلمية، ثم بالمثنى؛ مراعاة لما في ذهن المخاطب.

ومن ناحية أخرى قد يكون الأمر له علاقة بالمعنى اللغوي لدى المتلقي، أي أنَّ المقصود بالسموات عالم السموات، وعالم الأرض، فكأنَّه قال: عالم السموات وعالم الأرض وما بينهما، أي ما بين العالمين.

أمَّا في قول تعالى "﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾"[(2)] جاء الخطاب بالجمع "مثلهم"؛ لأنَّ الضمير "هم" يعود على الناس[(3)] أي يخلق مثل المنكرين للبعث، في الصغر بالإضافة إلى السموات والأرض[(4)]، فالخطاب هنا راعى المشمولين في الخطاب في الآيات السابقة لهذه الآية.

التحول في الخطاب مراعاة للأهم:

قد يأتي التحول في الخطاب لمراعاة الأهم في في السياق كما في قوله تعالى "﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾"[(5)] حيث نلحظ أنَّ الحديث عن الصبر والصلاة بالمثنى، ثم تحول الخطاب إلى المفرد بقوله: "لكبيرة". وقد اختلف المفسرون في معاد الضمير فقيل: إنَّ الضمير عائد إلى الصلاة، والمعنى أنَّ الصلاة

(1) ينظر: السراج المنير، ج3، ص457. وينظر البقاعي، برهان الدين أبي الحسن، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق عبد الرزاق هالب المهدي، دار الكتب العلمية ن بيروت، 1995، ج7، ص58.

(2) يس آية 81.

(3) ينظر:التحرير والتنوير، ج3، ص58.

(4) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ج15، ص15، والكشاف، ج4، ص34.

(5) البقرة آية 45.

تصعب على النفوس لأنَّها سجن للنفس[1] فالرجوع على الأغلب والأهم[2]. ومنهم من يرى أنَّ الضمير "للاستعانة" بالصبر والصلاة المأخوذة من استعينوا وقيل راجع إلى المأمورات المتقدمة[3] ومنهم من يرى أنهما أمران منضمان إلى بعضهما لا تستقيم الأمور إلا بهما معا يكونان عاجلا واحدا كما في قوله تعالى: "﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾"[4] كان المفروض إليهما، ولكن التجارة واللهو عمل واحد؛ لأنَّ العلاج في الصبر مع الصلاة، والصبر كبير أن تتحمله النفس وكذلك الصلاة؛ لأنَّهما يأخذان من حركة حياة الإنسان، والصبر هنا مطلوب ليصرّوا على ما يمتنعون عنه من نعيم الدنيا وزخرفها، والصلاة تحارب الاستكبار في النفس، فكأن الوصفة الإيمانية لا تتجزأ فلا يتم الصبر بلا صلاة ولا تتقن إلا بالصبر[5].

غير أنّ المدقق في الخطاب يجد أن الضمير في "أنّها" يعود على الصلاة؛ ذلك لأنَّ قضية الصبر قضية متعلقة بالنفس موجودة منذ وعى الإنسان على أعماله، فلا يحتاج إلى تذكيره بأنَّ الصبر كبير على النفس، صعب على الإنسان، فالصعوبة، والحبس من المعاني الملاصقة للصبر نقول" صبره عن الشيء حبسه، وأصل الصبر الحبس، وكل من حبس شيئا فقد صبره، فلو حبس رجل نفسه على شيء يريده قال صبرت نفسي، وسمي الصوم صبراً لما فيه من حبس النفس عن الطعام والشراب والنكاح"[6] أما الصلاة فهي حدث جديد، يجب على القوم الالتزام به، وهي صعبة على النفس، لا لأنها أصعب من الصبر، ولكن لأنَّها تحتاج إلى جَلد من الإنسان كي يلتزم بها ويؤديها على أكمل وجه بخشوع وتضرع، فهو لم يسبق له الالتزام بمثل هذا الأمر، فجاء الضمير

(1) ينظر: التحرير والتنوير، ج1، ص479، والكشاف ج1، ص162-163.

(2) الكشف والبيان، ج1،ص189.

(3) ينظر التحرير والتنوير ج1، ص479، وهامش النحو الوافي ج1، ص257 – 258.

(4) الجمعة آية 11.

(5) ينظر تفسير الشعراوي، ج1، ص308، http://shamela.ws/index.php/book/1083 ،مطابع أخبار اليوم، 1433/10/22هـ

(6) لسان العرب، مادة صبر

عائدا عليها لأهميتها في الخطاب بقوله تعالى "إنها لكبيرة".

ولعلنا بهذا الاستنطاق للنص نكون قد أشرنا إلى المسافة الجمالية في النص القرآني التي تُعد من ركائز نظرية التلقي عند النقاد[1]، من خلال البحث في عمق النص والكشف عن النص الغائب الذي فيما نظن أنه بدا واضحاً.

التحول في الخطاب للرد على كل شاك:

في قوله تعالى "﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ * الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾"[2] قدم الخطاب بالجمع "يبلوكم" في آيات تدل على قدرته عزوجل ثم تحول الخطاب إلى المفرد "ارجع" في صورة التحدي والقدرة، ولكن لماذا جاء هذا الخطاب بالإفراد.

من المفسرين من يرى أنَّه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل مخاطب[3].

غير أنه وبالنظر في الخطاب نجد أنَّه خطاب لغير معين، أي ألا ترى أيها الرائي تفاوتاً، والمقصود منه التعريض بأهل الشرك إذا أضاعوا النظر والاستدلال بما يدل على وحدانية اللّه تعالى بما تشاهده أبصارهم من نظام الكواكب وذلك ممكن لكل من يبصر[4] فبعد أن تحدث اللّه عزوجل عن قدرته في خلق الموت ،والحياة ،وخلق السوات، والأرض بانتظام دون خلل ،أو عيب يؤكد على ذلك بإرجاع البصر أكثر من مرة فإن الناظر لن يجد عيبا أو خللا. فكيف يكون الخطاب إذن للنبي ﷺ الذي من مهامه صلى اللّه عليه وسلم أن يبين قدرة اللّه عزوجل، فالخطاب إذا موجه لكل من يشك، أو

---

(1) ينظر: مصطلحات أدبية: نظرية التلقي، مقال مُوَثق منشور على الموقع الالكتروني http://forums.fonon.net/showthread.php?t=7914&page=1

(2) الملك الآيات 2،3،4. وذكرت زاهدة عبد الله قوله تعالى "ارجع البصر كرتين" ضمن النماذج التي لم تقدم لها تحليلاً، وعدتها عدول من المثنى إلى الجمع، وأظنها ليست كذلك ينظر: العدول عن السياق في القرآن الكريم ص123.

(3) السراج المنير، ج4، ص245.

(4) ينظر:التحرير والتنوير، ج29، ص17.

تراوده نفسه في قدرة الله عزوجل في الخلق فالله عزوجل يخاطبه بأنه خلق السموات والأرض بانتظام، ويؤكد على قدرته بأنك أيها الشاك ارجع البصر أكثر من مرة فإنك لن تجد إلا انتظاما في هذا الخلق.

وفي قوله تعالى "﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾"(1) كان الخطاب في الآيات السابقة لهذه الآية موجها إلى الجمع" ألا تطغوا، أقيموا، لا تخسروا" ثم تحول إلى المثنى "تكذبان".

ذهب البعض إلى أن الخطاب لفريقين: المؤمنين والكافرين، وقيل أن التثنية جرت على طريقة العرب في الكلام بان يخاطبوا الواحد بصيغة المثنى(2) والذي نراه أنَّه خطاب للإنس والجن بدلالة الأنام عليها(3). ولكن يبقى السؤال لماذا هذا التحول فبعد أن كانت أوامر الله عزوجل بخطاب الجمع "ألا تطغوا، أقيموا، لا تخسروا" تحول إلى المثنى، ذلك لأنَّ هذه الأشياء أوامر للجميع يجب الالتزام بها، فلما خاطب بعدم التكذيب لم يعد الخطاب جمعاً؛ لأنَّ الخطاب يخص كل من يكذب من الأنس ومن يكذب من الجن، إذ لا يمكن أن يقع التكذيب من جميع بني الإنس، وبني الجن في آن واحد، فلما كان الأمر كذلك تحول الخطاب إلى المثنى.

الخاتمة:

بعد هذه الدراسة لتحولات الخطاب في النص القرآني، يمكننا أن نجمل أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة:

1. استطاعت الدراسة أن تقدم دلالات فرعية للتحول في الخطاب مراعاة لمعنى "مَن"، تنوعت بين الإقناع، وبث الطمأنينة والأمان، والتعظيم، وقدرة الله عز وجل، وبيان رحمته عز وجل، والتهويل والتخويف، تشكلت كلها متخذة صورة التحول من المفرد إلى الجمع.
2. كان للنبي صلى الله عليه وسلم حظٌ في هذا التحول، فقد جاءت الدراسة بصور

(1) الرحمن آية 13.

(2) ينظر:التحرير والتنوير، ج 27، ص243-244.

(3) ينظر:الكشاف، ج4، ص24، وفتح القدير ج5، ص188.

للتحول في الخطاب القرآني تنوعت من المفرد إلى الجمع ،ومن الجمع إلى المفرد ،سببها خصوصية النبي المرسل في الخطاب، فضلا عن بعض الدلالات الفرعية التي جاءت مع هذه الخصوصية.

3. أكدت الدراسة على دلالة شاملة تمثلت في شمول التابع مع المتبوع في الخطاب القرآني الذي كان يتشكل لمخاطبة المفرد (المرسل) ثم ينتقل إلى المرسل إليهم فيشملهم بالخطاب بصيغة الجمع، وقد يتخذ صورة التحول من مخاطبة المثنى إذا كان المرسل نبيين، إلى الجمع لشمول المتبوع.

4. كان الأصل اللغوي سبباً واضحا في تفسير ظاهرة التحول في بعض الخطابات في النص القرآني، فضلاً عن ذلك كشفت الدراسة عن دلالات فرعية أخرى في آيات هذا النمط من التحول تنوعت بين لفت انتباه القارئ، والتعظيم، واحتمالية التحول في شخصية المخاطب، وبث الطمأنينة، والقوة، والحزم، ومراعاة المعنى الذهني للمخاطب. متخذة صور التحول من المفرد إلى الجمع، ومن المثنى إلى المفرد ، ومن المثنى إلى الجمع، ومن الجمع إلى المفرد ، ومن الجمع إلى المثنى.

5. راعى الخطاب القرآني كل جديد فأدى ذلك إلى التحول في صيغة الخطاب من صيغة إلى أخرى مراعياً أهمية هذا الجديد للمخاطبين، كما هو الحال في التحول من صيغة المثنى إلى المفرد.

6. قد يجيء التحول للرد على كل شاك أو منكر، متخذاً صورة التحول من الجمع إلى المفرد ، ومن الجمع إلى المثنى.

المراجع:

الأستراباذي، رضي الدين. 1978م. شرح الرضي على الكافية، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، جامعة قاريونس.

الأشموني، علي بن محمد. 1955م. شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ط1، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

إعلاوي، نزيه محمد والأحمد، أيمن محمد. 2007م. التفات العدد في نماذج من القرآن الكريم ،مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 34.

الآلوسي ،محمود أبو الفضل. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ابن الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن محمد. أسرار العربية ،تحقيق محمد بهجة البيطار، مطبوعات المجمع العلمي، دمشق.

الأندلسي، أبو حيان. 1998م. ارتشاف الضرب من لسان العرب، ط1، تحقيق رجب عثمان محمد، مراجعة رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة،

الأندلسي، أبو حيان. 2001م. البحر المحيط، ط1، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود ،وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

البشير، محمد عبدالعزيز. تلقي الرواية السعودية في الصحافة منذ عام 2000م - 2010م،صحيفة الرياض أنموذجاً. 2012م. رسالة ماجستير، جامعة الملك فيصل، السعودية.

البقاعي، برهان الدين أبي الحسن. 1995م. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق عبدالرزاق هالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت.

البيضاوي، تفسير البيضاوي، ج3، ص133 (http://shamela.ws/browse.php/book-23588#page-483، المكتبة الشاملة) تاريخ الاسترجاع 1433/10/20هـ.

البيضاوي، تفسير البيضاوي، ج4، ص57 (http://shamela.ws/browse.php/book-23588#page-701، المكتبة الشاملة) تاريخ الاسترجاع 1433/10/20هـ

الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد. 2002م. الكشف والبيان، ط1، تحقيق محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

الجزائري، جابر بن موسى بن عبد القادر. 2003م . أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ط5، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية.

الجزري، أبو السعادات المبارك بن محمد. 1979م. النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت.

ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. 1404هـ. زاد المسير في علم التفسير، ط3، المكتب الإسلامي، بيروت.

حسان، تمام. 2007م. اجتهادات لغوية، ط1، علم الكتب، القاهرة.

حسن، عباس، النحو الوافي. ط3، دار المعارف، مصر.

الحلبي، السمين. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق أحمد الخراط، دار القلم، دمشق.

الحنبلي، أبو حفص عمر بن علي. 1998م. اللباب في علوم الكتاب، ط1، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد عوض دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الخازن، علاء الدين علي بن محمد. 1979م. تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الفكر، بيروت.

الرازي، محمد بن أبي بكر. 1995م. مختار الصحاح، تحقيق محمود طاهر، مكتبة ناشرون، بيروت.

الرازي، محمد بن عمر بن الحسن. تفسير الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي.

الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى. رسالة منازل الحروف، تحقيق إبراهيم السامرائي، دار الفكر، عمان.

روبرت دى بوجراند. 1998م. النص والخطاب والإجراء،ترجمة تمام حسان، ط1، عالم الكتب، القاهرة

الزبيدي، محمد بن محمد. تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية.

الزجاج، أبو إسحاق، إعراب القرآن. تحقيق ودراسة إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي، القاهرة.

الزحيلي، وهبة مصطفى. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ط2، دار الفكر المعاصر، دمشق.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

السامرائي، فاضل،الأسئلة والأجوبة المفيدة في لطائف بعض الآيات القرآنية، ص309
http://www.islamicbook.ws/qbook%5Calom/lmsat-bianit-.pdf تاريخ الاسترجاع
20 - 10- 1433هـ

السامرائي، فاضل. معاني النحو، العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة

ابن السراج، أبو بكر محمد بن سهل. 1996م. الأصول في النحو، ط3، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت.

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. 2000م. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق ابن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة.

أبوالسعود، محمد بن محمد. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد. 1997م. تفسير القرآن، تحقيق ياسر إبراهيم، وغنيم عباس غنيم، دار الوطن، الرياض ،السعودية.

سيبويه، أبو بشر عمرو. 1988م. الكتاب، ط3، تحقيق عبد السلام هارون ،مكتبة الخانجي، القاهرة.

السيوطي، جلال الدين السيوطي. المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ط1، تحقيق فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت.

السيوطي، جلال الدين محمد أحمد. تفسير الجلالين المحلي، جلال الدين، ط1، دار الحديث، القاهرة.

ابن الشجري، هبة الله بن علي العلوي. 1992م. أمالي ابن الشجري، ط1، تحقيق محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة.

الشربيني، محمد بن أحمد. تفسير السراج المنير، دار الكتب العلمية.

الشعراوي، تفسير الشعراوي،ج19، 11712، ج5،ص2715، ج10، ص 6123، ج1، ص308، مطابع أخبار اليوم/ http://shamela.ws/index.php/book/1083 22/10/1433.

الشنقيطي، محمد الأمين. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر، بيروت.

الشوكاني، محمد بن علي. فتح القدير بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، المكتبة الشاملة.

الشيخ جمعة، إيمان أحمد. 2010م. دور السياق في تحديد الدلالات الوظيفية في القرآن الكريم ،رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، مصر.

الطبري، محمد بن جرير. 2000م. جامع البيان في تأويل القرآن، ط1، تحقيق أحمد محمد شاكر.

طبل، حسن. 1998. الالتفات في البلاغة العربية ،القاهرة، دار الفكر العربي.

عاشور، محمد الطاهر. 1997م. التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

عبد القادر، ملا حويش آل غازي. بيان المعاني، مطبعة الترقي، دمشق.

عبد اللطيف، محمد حماسة. 2000م. النحو والدلالة - مدخل لدراسة المعنى النحوي- الدلالي- ط1، القاهرة، دار الشروق.

عبد الله محمد، زاهدة. 2008م. العدول عن السياق في القرآن الكريم – دراسة في المفرد والمثنى والجمع - مجلة التربية والعلم، المجلد15، العدد3، جامعة الموصل.العراق.

أبو عبيدة، معمر بن المثنى. مجاز القرآن، تحقيق محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة.

العكبري، أبو البقاء. 1995. اللباب في علل البناء والإعراب، ط1، تحقيق غازي مختار طليمات.

العكبري، محب الدين أبو البقاء ،التبيان في إعراب القرآن، بيت الأفكار الدولية، عمان، الأردن.

عمر،أحمد مختار. 1982. علم الدلالة، ط1، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت.

عيد، محمد. النحو المصفى، مكتبة الشباب.

الغامدي، منى محمد. 1429. تلقي شعر أبي تمام في التراث النقدي عند العرب الآمدي أنموذجاً، النادي الأدبي، الأحساء.

الفاسي، أحمد بن محمد. 2002م. البحر المديد، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت.

الفاضلي، فرح باقر. 2011م. العدول في القرآن الكريم وفق نظرية التلقي - دراسة أسلوبية - رسالة ماجستير، جامعة الكوفة. العراق.

الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد. معاني القرآن، تحقيق أحمد يوسف نجاتي،ومحمد علي نجار، وعبد الفتاح إسماعيل شلبي، مصر.

فرانك شويرفيجن. 1998م. نظريات التلقي، ضمن بحوث في القراءة والتلقي ،ط1، ترجمة محمد خير البقاعي، مركز الإنماء الحضاري، حلب.

الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.

فضل، صلاح. 1997م. مناهج النقد المعاصر، دار الآفاق العربية، القاهرة.

الفيروز آبادي ، محمد بن يعقوب. القاموس المحيط.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. 2002م. الجامع لأحكام القرآن، تحقيق هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، السعودية.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر. 1999م. تفسير القرآن العظيم، ط2، تحقيق سامي ابن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع.

المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد. 1994م. المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة.

ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت.

النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد. 1998. إعراب القرآن، تحقيق زهير غازي زاهد، عالم الكتب، بيروت.

هيئة تحرير موقع فنون الإلكتروني، مصطلحات أدبية: نظرية التلقي، مقال مُوَثق منشور على الموقع الالكتروني http://forums.fonon.net/showthread.php?t=7914&page=1 تاريخ الأسترجاع 20 – 10 - 1433هـ.

Discourse Transitions in Quran "A study in Forms of Singular, Muthanna (two), and Plural"

Murad Rafiq Albayyari

Department of Arabic languge - Faculty of Arts
King Faisal University, Saudi Arabia

Abstract:

This research aimed to study the discourse transitions in the Quran in the forms of its transitions between singular, muthanna (two), or plural. And to process grammatically and linguistically the mentioned transitions in an attempt to clarify the reasons for this transitions and its semantics.

The study faucsed on the main causes and semantics of these transformations which were: The meaning of the "Who", the specificity of the Prophet peace be upon him, the inclusion of disciple (Tabi'a) and followed by (Matbou'a). Taking into account the linguistic root, and the most important, and responding to each incredulous. As well as the subsidiary semantics that resulted from these transitions.

Key Words: Discourse, Muthanna "two", Plural, Semantic, Singular, Transition.